شوقي (١)

هذا هو الرَّجل الَّذي يُخيَّل إليَّ أنَّ مصر اختارته دون أهلها جميعاً لتضع فيه روحها المتكلِّم ، فأوجبت له ما لم توجب لغيره ، وأعانته بما لم يتَّفق لسواه ، ووهبته من القدرة ، والتَّمكين ، وأسباب الرِّياسة ، وخصائصها على قدر أمَّةٍ تريد أن تكون شاعرةً ، لا على قدر رجلٍ في نفسه ؛ وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتَّاريخ : شعري ، وأدبي ! .

شوقي : هذا هو الاسم الذي كان في الأدب كالشَّمس من المشرق ؛ متى طلعت في موضعٍ ؛ فقد طلعت في كلِّ موضع ، ومتى ذُكِرَ في بلد من بلاد العالم العربيِّ ؛ اتَّسع معنى اسمه ، فدلَّ على مصر كلِّها ، كأنَّما قيل : النِّيل ، أو الهرم ، أو القاهرة مترادفات ، لا في وضع اللُّغة ، ولكن في جلال اللُّغة .

رجلٌ عاش حتَّى تمَّ ، وذلك برهان التَّاريخ على اصطفائه لمصر ، ودليل العبقريَّة على أنَّ فيه السِّرَّ المتحرِّك ؛ الَّذي لا يقف ، ولا يكلُّ ، ولا يقطع نظام عمله ، كأنَّ فيه حاسَّة نحلةٍ في حديقةٍ ، ويكبر شعره كلَّما كبر الزَّمن ، فلم يتخلَّف عن دهره ، ولم يقع دون أبعد غاياته ، وكأنَّه مع الدَّهر على سياقٍ واحدةٍ ، وكأنَّ شعره تاريخٌ من الكلام يتطوَّرُ أطواره في النُّموِّ ، فلم يجمد ، ولم يرتكس ، وبقي خيال صاحبه إلى آخر عمره في تدبير السَّماء كعَرَّاض الغمامة ، سحابه كثير البرق ، ممتلئٌ ، ممطرٌ ، ينصبُّ من ناحيةٍ ، ويمتلئ من ناحيةٍ .

والنَّاس يُكتب عليهم الشَّباب ، والكهولة ، والهرم ، ولكنَّ الأديب الحقَّ يكتب عليه شبابٌ ، وكهولةٌ ، وشبابٌ ؛ إذ كانت في قلبه الغايات الحيَّة الشَّاعرة ما تنفكُّ يلد بعضها بعضاً إلى ما لا انقطاع له ، فإنَّها ليست من حياة الشَّاعر ؛ الَّتي خلقت في قلبه ، ولكنَّها من حياة المعاني في هذا القلب .

* * *

(١) المقتطف سنة (١٩٣٢)م . وانظر : « في النقد » من كتابنا : « حياة الرَّافعي » . (س) .

أقرِّر هذا في شوقي ـ رحمه الله ـ ، وأنا مِنْ أعرف النَّاس بعيوبه ، وأماكن الغميزة في أدبه ، وشعره ، ولكنَّ هذا الرجل انفلتَ من تاريخ الأدب لمصر وحدَها كانفلات المطْرة من سحابها المتساير في الجوِّ ، فأصبحت مصر به سيِّدة العالم العربيِّ في الشِّعر ، وهي لم تُذكر قديماً في الأدب إلا بالنُّكتة ، والرِّقَّة ، وصناعاتٍ بديعيَّةٍ ملفَّقة ، ولم يَسْتَفِض لها ذكر بنابغةٍ ، ولا عبقريٍّ ؛ وكانت كالمستجدية من تاريخ الحواضر في العالم ، حتَّى إنَّ أبا محمَّد الملقَّب بولي الدَّولة صاحب ديوان الإنشاء في مصر للظَّاهر بن المستنصر (وقد توفي سنة ٤٣١ هـ) وكان رزقه ثلاثة آلاف دينارٍ في السَّنة غير رسومٍ يستوفيها على كلٍّ ما يكتبه ؛ سلَّم لرسول التُّجَّار إلى مصر من بغداد جزءين من شعره ؛ ورسائله ، يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشَّريف المرتضى ، وغيره من أدبائها ، فيستشيرهم في تخليد هذا الأدب المصري بدار العلم إن استجادوه ، وارتضوه ، كأنَّ حفظ ديوان من شعر مصر ، ونشرها في مكتبة بغداد قديماً يشبه في حوادث دهرنا استقلال مصر ، وقبولها في عصبة الأمم .

وهذا أحمد بن الأسوانيّ إمامٌ من أئمَّة الأدب في مصر (توفي سنة ٥٦٢هـ) وكان كاتباً شاعراً ، يجمع إلى علوم الأدب : الفقهَ ، والمنطقَ ، والهندسةَ ، والطِّبَّ ، والموسيقا ، والفلكَ ـ أراد أن يدوِّن شعر المصريِّين ، فجمع مِنْ شعرهم ـ وشعر مَنْ طرأ عليهم ـ أربع مجلدات ، وكأنَّ الشِّعر المصريَّ وحده إلى آخر القرن السَّادس للهجرة ، في العهد الَّذي لم يكن ضاع فيه شيءٌ من الكتب ، والدَّواوين لا يملأ أربع مجلَّدات . . . على اختلافهم في مقدار المجلَّدة ، فقد تكون جزءاً لطيف الحجم ، والأسواني نفسه يبلغ ديوانه نحو مئة ورقة .

وأخوه الحسن المعروف بالمهذَّب الأسواني (المتوفى سنة ٦٥١هـ) قال العماد الكاتب : إنَّه لم يكن بمصر في زمنه أشعر منه ، وسارت له في النَّاس قصيدةٌ سمَّوها « النَّوَّاحة » وصف فيها حنينه إلى أخيه ، وقد رحل إلى مكَّة ، وطالت غيبته بها ، وخيف عليه ، لرجلٍ أشعر أهل مصر في زمنه ؛ وحادثة النَّوَّاحة تجعله في هذا المعنى أشعر من نفسه ، على أنَّه مع هذا لم يقل إلا من هذا :

يا ربعُ أين ترى الأحبَّة يمَّموا   هل أنجدوا مِنْ بعدنا أم أتهموا
رحلوا وفي القلب المعنَّى بعدهم   وجدٌ على مرِّ الزَّمان مخيِّمُ
وتعوَّضتْ بالأنس نفسي وحشةً   لا أوحش الله المنازلَ منهمُ

ولولا ابنُ الفارض ، والبهاء زهير ، وابن قلاقس الإسكندري ، وأمثالهم ـ وكلُّهم أصحاب دواوين صغيرةٍ ، وليس في شعرهم إلا طابعُ النِّيل ؛ أي : الرِّقَّة والحلاوة ـ لولا هؤلاء في المتقدِّمين ؛ لأجدب تاريخ الشِّعر في مصر ، ولولا البارودي ، وصبري ، وحافظ في المتأخِّرين ـ وكلُّهم كذلك أصحاب دواوين صغيرة ـ لما ذكرت مصر بشعرها في العالم العربيِّ ، على أن كلَّ هؤلاء ، وكلَّ أولئك لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشِّعر على مفرق مصر ، ووضعه شوقي وحدَه !

والعجب : أنَّ دواوين المجيدين من شعراء المصريِّين لا تكون إلا صغيرةً ، كأنَّ طبيعة النِّيل تأخذ في المعاني ، كأخذها في المادَّة ، فلا فيض ، ولا خصب إلا في وقتٍ بعد أوقاتٍ ، وفي ثلاثة أشهر من كلِّ اثني عشر شهراً ، ومن جمال الفراشة أن تكون صغيرةً ، وحسبها عند نفسها : أنَّ أجنحتها منقَّطةٌ بالذَّهب ، وأنَّها هي نكتةٌ من بديع الطَّبيعة !

على أنَّك واجدٌ في تاريخ الأدب المصريِّ عجيبةً من عجائب الدُّنيا لا تُذكر معها الإلياذة[1] ، ولا الإنياذة[2] ، ولا الشَّاهنامة ، ولا غيرها ، ولكنَّها عجيبةٌ ملأتها روح الصَّحراء إن كانت تلك الدَّواوين الصَّغيرة من روح النِّيل ، وهي قصيدةٌ نظمها أبو رجاء الأسواني المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ، وكان شاعراً ، فقيهاً ، أديباً ، عالماً ، كما قالوا ، وزعموا : أنَّه اقتصَّ في نظمه أخبار العالم ، وقصص الأنبياء واحداً بعد واحدٍ . قالوا : وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتُك ؟ فقال : ثلاثين ، ومئة ألف بيتٍ . . . وما أشكُّ : أنَّ هذا الرَّجل وقع له تاريخ الطَّبري ، وكتب السِّير ، وقصص الإسرائيليَّات ، فنظمها متوناً متوناً . . . وأفنى عمره في ١٣٠ ألف بيت حوَّلها التَّاريخ إلى خبرٍ مهملٍ في ثلاثة أسطرٍ[3] !

كلُّ شاعرٍ مصريٍّ هو عندي جزءٌ من جزءٍ ؛ ولكنَّ شوقي جزءٌ من كلٍّ ؛ والفرق بين الجزءين : أنَّ الأخير في قوَّتِه ، وعظمته ، وتمكُّنه ، واتِّساع شِعره جزءٌ عظيمٌ

---

(١) « الإلياذة » : إحدى ملحمتي هوميروس الخالدتين ، قسَّمها علماء الإسكندريَّة أربعة وعشرين جزءاً . وقد تُرجمت إلى معظم لغات الأمم ، ومنها العربية .

(٢) « الإنياذة » : ملحمة فرجيل ؛ ؛ التي نظمها للتغنِّي بنشأة روما ، وتُعَدُّ أروع ملحمة لاتينية ، ؛ نظمها صاحبها على غرار الإلياذة الهومريَّة .

(٣) انظر خبر (مصر الشاعرة) « في النقد » من كتابنا : « حياة الرَّافعي » . (س) .

كأنَّه بنفسه الكلُّ ؛ ولم يترك شاعرٌ في مصر قديماً ، وحديثاً ما ترك شوقي ، وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه ؛ وذلك من الأدلَّة على أنَّه هو المختار لبلاده ، فساوى الممتازين من شعراء دهره ، وارتفع عليهم بأمورٍ كثيرةٍ هي رزق تاريخه من القوَّة المدبِّرة الَّتي لا حيلة لأحدٍ أن يأخذ منها ما لا تعطي ، أو يزيد ما تنقص ، أو ينقص ما تزيد ، وقد حاولوا إسقاط شوقي مراراً فأراهم غباره ، ومضى متقدِّماً ، ورجع منهم مَنْ رجع ليغسل عينيه . . . ويرى بهما أنَّ شوقي من النَّفس المصريَّة بمنزلة المجد المكتوب لها في التَّاريخ بحربٍ ، ونصرٍ ، وما هو بمنزلة شاعرٍ ، وشعره .

ولد شاعرنا سنة ١٨٦٨ في نعمة الخديوي إسماعيل باشا ، ونثر له الخديوي الذَّهب ، وهو رضيع في قصَّةٍ ذكرها شوقي في مقدِّمة ديوانه القديم . ثمَّ كفله الخديوي توفيق باشا ، وعلَّمه ، وأنفق عليه من سَعَةٍ ؛ وأنزل نفسه منه منزل أبٍ غنيٍّ كما يقول شوقي في مقدِّمته ، ثمَّ تولاه الخديوي عبَّاس باشا وجعله شاعره ، وتركه يقول :

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللَّقب

وإذا أنت فسَّرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمير نفسه في ذلك العهد ؛ خرج لك من التَّفسير : شاعرٌ مُرهَفٌ ، مُعانٌ بأسبابٍ كثيرةٍ ؛ ليكون أداةً سياسيَّةً في الشَّعب المصريِّ ، تعمل لإحياء التَّاريخ في النَّفس المصريَّة ، وتبصيرها بعظمتها ؛ وإقحامها في معارك زمنها ، وتهيئتها للمدافعة ، وتصلُ الشِّعر بالسِّياسة الدِّينيَّة الَّتي توجَّهت لها الخلافة يومئذٍ ؛ لتضرب فكرة أوربة في تقسيم الدَّولة بفكرة الجامعة الإسلاميَّة ؛ ولا يخرج لك شوقي من هذا التَّفسير على أنَّه رجلٌ في قدر نفسه ؛ بل في قدر أميره ذلك ؛ وكان ممتلئاً شباباً يغلي غلياناً ، ومُعدّاً يومئذٍ لمطامحَ بعيدةٍ ملفَّفةٍ حشوها الدِّيناميت السِّياسيُّ .

كنت ذات مرَّةٍ أكلِّم صديقي الكاتب العميق فرح أنطون صاحب (الجامعة) وكان معجباً بشوقي إعجاباً شديداً ، فقال لي : إنَّ شوقي الآن في أفق الملوك ، لا في أفق الشُّعراء ! قلت : كأنَّك نفيته من الملوك ، والشُّعراء معاً ؛ إذ لو خرج الرَّجل في السِّياسة الملتوية الَّتي تصله بالأمير ، هو مرَّة كوزير الحربيَّة ، ومرَّةً كوزير المعارف .

وهذه السِّياسة ؛ الَّتي ارتاض بها شوقي ، ولابسها من أوَّل عهده ، واتَّجه شعره

في مذاهبها ، من الوطنيَّة المصريَّة ، إلى النَّزعة الفرعونيَّة ، إلى الجامعة الإسلاميَّة فكانت بهذا سببَ نبوغه ، ومادَّة مجده الشِّعريِّ ، هي بعينها مادَّة نقائصه ؛ فلقد ابتلته بحبٍّ نفسه ، وحبِّ الثَّناء عليها ، وتسخير النَّاس في ذلك بما وسعته قوَّته ، إلى غيرةٍ أشدَّ من غيرة الحسناء ، تقشعرُّ كلُّ شعرةٍ منها ؛ إذ جاءها الحُسْن بثانيةٍ ، وهي غيرةٌ وإن كانت مذمومةً في صلتِه بالأدباء الَّذين لذعوه بالجمر . ونحن منهم ، غير أنَّها ممدوحةٌ في موضوعها من طبيعتِه هو ؛ إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتَّى ظلَّه ، فعارض المتقدِّمين بشعره ، كأنَّهم معه ، ونافس المعاصرين ؛ ليجعلهم كأنَّهم ليسوا معه ، ونافس ذاته أيضاً ؛ ليجعل شوقي أشعر من شوقي ، وعندي : أنَّ كلَّ ما في هذا الرَّجل من المتناقضات فمرجعه إلى آثار تلك السِّياسة الملتوية ؛ الَّتي رُدَّت بطبيعة القوَّة عن وجوهها الصَّريحة ، فجعلت تضطرب في وجوهٍ من الحيل ، والأسباب مدبرةً ، مقبلةً ، متهدِّيةً في كلِّ مجاهلها بإبرةٍ مغناطيسيَّةٍ عجيبةٍ ، لا يشبهها في الطَّبيعة إلا أنف الثَّعلب المتَّجه دائماً إلى رائحة الدَّجاج .

ومؤرِّخ الأدب ؛ الَّذي يريد أن يكتب عن شوقي لا يصنع شيئاً ؛ إنْ هو لم يذكر أنَّ هذا الشَّاعر العظيم كان هدية الخديوي توفيق ، والخديوي عبَّاس لمصر ؛ كالدِّلتا بين فرعي النِّيل ؛ وما أصابه المتنبِّي من سيف الدَّولة ما ابتعث قريحتَه ، وراش أجنحته السَّماويَّة ، وأضفى ريشها ، وانتزَى بها على الغايات البعيدة في تاريخ الأدب ؛ أصاب شوقي من سموِّ الخديوي عبَّاس أكثر منه ، فكان حقيقاً أن يساوي المتنبِّي ، أو يتقدَّمه ، ولكنَّه لم يبلغ منزلته ؛ لأنَّ الخديوي لم يكن كسيف الدَّولة في معرفته بالأدب العربيِّ ، ورغبته فيه ؛ وسرُّ المتنبِّي كان ثلاثة أشياء : في جهازه العصبيِّ العجيب ؛ الَّذي لا يقلُّ في رأيي عمَّا في دماغ شكسبير ، وفي ممدوحه الأديب الملك ؛ الَّذي ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائيِّ من آلةٍ عظيمةٍ يديرها بعلمٍ ، ويقوم عليها بتدبيرٍ ، ويحوطها بعنايةٍ ، ثمَّ في أفق عصره المتألِّق بنجوم الأدب ؛ الَّتي لا يمكن أن يظهر بينها إلا ما هو في قدرها ؛ ولا يتميَّز فيها إلا ما هو أكبر منها ، ولا يتركها كالمنطقة إلا شمسٌ كشمس المتنبِّي تتفجَّر على الدُّنيا بمعجزاتها النُّورانيَّة .

ولقد والله ! كان هذا المتنبِّي كأنَّه يوزِّع الشَّرف على الملوك ، والرُّؤساء ، وهل

أدلُّ على ذلك من أنَّ أبا إسحاق الصَّابي[1] شيخ الكتَّاب في عصره يراسله أن يمدحه بقصيدتين ، ويعطيه خمسة آلاف درهم ، فيرسل إليه المتنبِّي : ما رأيت بالعراق مَنْ يستحقُّ المدح غيرك ، ولكنِّي إنْ مدحتك ؛ تنكَّر لك الوزير (يعني : المهلَّبي) لأنِّي لم أمدحه ، فإن كنتَ لا تبالي هذا الحال ؛ فأنا أجيبك ، ولا أريد منك مالاً ، ولا من شعري عوضاً . فأين في دهرِنا من يُشعره عزَّة الأدب مثل هذا الشُّعور ليأتي بالشِّعر من نفسٍ مستيقنةٍ : أنَّ الدُّنيا في انتظار كلمتها ؟

على أنَّ شوقي لم يكن ينقصه باعتبار زمنه إلا (الجمهور الشِّعريُّ) ، وكلُّ بلاءِ الشِّعر العربيِّ : أنَّه لا يجد هذا الجمهور ، فالشَّاعرُ بذلك منصرفٌ إلى معانٍ فرديَّةٍ من ممدوحٍ عظيمٍ ، أو حبيبٍ عظيمٍ ، أو سقوطٍ عظيمٍ . . . حتَّى الطَّبيعة تظهر في الشِّعر العربيِّ كأنَّها قطعٌ مبتورةٌ من الكون ، داخلةٌ في الحدود ، لابسةٌ الثِّياب : ومن ذلك ينبغ الشَّاعر ، وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه ، لا قدر جمهوره ، وإلا ملءَ حاجاته ، لا ملءَ الطَّبيعة ؛ فلا جرم يقع بليداً عن المعنى الشَّامل المتَّصل بالمجهول ، ويسقط بشعره على صورٍ فرديَّةٍ ضيِّقة الحدود ، فلا نجد في طبعه قوَّة الإحاطة ، والتَّبسُّط ، والشُّمول ، والتَّدقيق ، ولا تؤاتيه طبيعته أن يستوعب كلَّ صورةٍ شعريَّةٍ بخصائصها ، فإذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عَفْوِه ، ولا يحسن أن يوغِل فيه ، وإذا هو على نزواتٍ ضعيفةٍ من التَّفكير ، لا يطول لها بحثه ، ولا يتقدَّم فيها نظرُه ، وإذا نفسه تمرُّ على الكون مرّاً سريعاً ، وإذا شعرُهُ مقطعٌ قطعاً ؛ وإذا آلامه وأفراحه أوصافٌ لا شعورٌ ، وكلماتٌ لا حقائق ، وظلٌّ طامسٌ مُلقىً على الأرض إذا قابله بتفاصيل الجسم الحيِّ السَّائر على الأرض .

واجتمع لشوقي في ميراث دمه ، ومجاري أعراقه عنصرٌ عربيٌّ ، وآخر تركيٌّ ؛ وثالثٌ يونانيٌّ ، ورابعٌ شركسيٌّ ؛ وهذه كثرة إنسانيَّةٌ لا يأتي منها شاعر إلا كان خليقاً أن يكون دولةً من دول الشِّعر ، وإلى هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبيِّ في عينيه ، كأنَّ هذا دليلٌ طبيعيٌّ على أنَّ وراءهما عينين للمعاني تزاحمان عيني البصر ، ولم يكن التَّركيب العصبيُّ في الشَّاعر مهيَّأً للنُّبوغ ؛ فاعلم أنَّه وقع من تقاسيم الدُّنيا في غير الشِّعر ، وليس في الطَّبيعة ، ولا في الصِّناعة قوَّةٌ تجعل حَنْجَرة البلبل في غير

(١) « الصابي » : هو إبراهيم بن هلال الحرَّاني (٩٢٥ ـ ٩٩٤) : أديبٌ ، وُلد ومات ببغداد . تولَّى ديوان الرسائل والمظالم منذ (٩٦٠) . نظم الشعر . وله ديوان .

البلبل ؛ ومع كلّ ما تقدَّم فقد أُعين شوقي على الشِّعر بفراغه له أربعاً وأربعين سنةً ، غير مشترك العمل ، ولا منقسم الخاطر على سعة الرِّزق ، وبسطةٍ في الجاه ، وعلوٍّ في المنزلة ، وبين يديه دواوين الشِّعر العربيِّ ، والأوربيِّ ، والتُّركيِّ ، والفارسِيِّ ؛ وإنْ تنسَ ؛ فلا تنسَ أنَّ شاعرنا هذا خُصَّ بنشاط الحياة ، وهو روح الشِّعر ، لا روح للشِّعر بدونه ، فسافر ، ورحل ، وتقلَّب في الأرض ، وخالط الشُّعوب ، واستعرض الطَّبيعة؛ يتحلَّلها ببصره ما بين الأندلس ، والآستانة ، وظهيرُه على ذلك مالُه ، وفراغُه ، وإنَّما قوَّة الشِّعر في مساقط الجوِّ ، ففي كلِّ جوٍّ جديد روحٌ للشَّاعر جديدةٌ ، والطَّبيعة كالنَّاس : هي في مكانٍ بيضاء ، وفي كلِّ مكان سوداء ؛ وهي في موضعٍ نائمةٌ تحلم ، وفي موضعٍ قائمةٌ تعمل ، وفي بلدٍ هي كالأنثى الجميلة ، وفي بلدٍ هي كالرَّجل المصارع ، ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبيِّ على أقواه ، وأشدِّه إلا إذا أطعمته مع صنوف الأطعمة اللَّذيذة المفيدة ، ألوان الهواء اللَّذيذ المفيد .

وعندي : أنَّه لا أمل أن ينشأ لمصر شاعرٌ عظيمٌ في طبقة الفحول من شعراء العالم ، إلا إذا أُعيد تاريخ شوقي مهذَّباً منقَّحاً في رجلٍ وهبه الله مواهبه ، ثمَّ تهبُه الحكومة المصريَّة مواهبها .

* * *

والكتاب الأوَّل الَّذي راضَ خيالَ شوقي ، وصقل طبعه ، وصحَّح نشأته الأدبيَّة ، هو بعينه الَّذي كانت منه بصيرة حافظ ، وذكرناه في مقالنا عنه ؛ أي : كتاب « الوسيلة الأدبيَّة » للمرصفي ؛ وليس السِّرُّ في هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ، ومختارات الشِّعر ، والكتابة ، فهذا كلُّه كان في مصر قديماً ، ولم يغنِ شيئاً ، ولم يخرج لها شاعراً كشوقي ، ولكنَّ السِّرَّ ما في الكتاب من شعر البارودي ؛ لأنَّه معاصرٌ ، والمعاصرة اقتداءٌ ، ومتابعةٌ على صوابٍ ؛ إن كان الصَّواب . وعلى خطأ ؛ إن كان الخطأ ، وقد تصرَّمت القرون الكثيرة ، والشُّعراء يتناقلون ديوان المتنبِّي ، وغيره ، ثم لا يجيئون إلا بشعر الصِّناعة ، والتَّكلُّف : ولا يُخلِدُ الجيلُ منهم إلا لما رأى في عصره ؛ ولا يستفتح غير الباب الذي فتح له ، إلى أن كان البارودي وكان جاهلاً بفنون العربيَّة ، وعلوم البلاغة ، لا يحسن منها شيئاً ، وجهله هذا هو كلُّ العلم الَّذي حوَّل الشِّعر من بعد ، فيا لها عجيبةٌ من الحكمة !

وهي دليلٌ على أنَّ النَّاس ليست إلا خضوعاً لقوانين نافذةٍ على النَّاس . وأكبَّ البارودي على ما أطاقه ، وهو الحفظ من شعر الفحول ؛ إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القراءة ، ثمَّ المعاناة ، والمزاولة . وكانت فيه سليقةٌ ؛ فخرجت مخرج مثلها في شعر الجاهليَّة والصَّدر الأوَّل من الحفظ والرِّواية ، وجاءت بذلك الشِّعر الجزل ؛ الَّذي نقله المرصفيُّ بإلهامٍ من الله تعالى ؛ ليخرج به إلى العربية حافظ ، وشوقي ، وغيرهما ، فكلُّ ما في الكتاب : أنه ينقل روح المعاصرة إلىٰ روح الأديب النَّاشئ ، فتبعثه هذه الرُّوح على التَّمييز ، وصحَّة الاقتداء ، فإذا هو على ميْزةٍ ، وبصيرةٍ ، وإذا هو على الطَّريق ؛ الَّتي تنتهي به إلى ما في قوَّة نفسه ما دام فيه ذكاءٌ ، وطبعٌ ، وبهذا ابتدأ شوقي ، وحافظ من موضعٍ واحدٍ ، وانتهى كلاهما إلى طريقةٍ غير طريقة الآخر ، والطَّريقتان معاً غير طريقة البارودي .

تحوَّل شوقي بهذا الشِّعر لا إلىٰ طريقة البارودي ، فإنَّه لا يطيقها ، ولا تتهيَّأ في أسبابه ، وخاصَّةً في أوَّل عهده ، وكأنَّ لغة البارودي فيها من لقبه ؛ أي فيها البارود . . . ولكن تحوُّل نابغتنا كان عن طريقة معاصريه من أمثال اللَّيثيِّ ، وأبي النَّصر ، وغيرهما ، فترك الأحياء ، وانطلق وراء الموتى في دواوينهم ؛ الَّتي كان من سعادته أن طُبع الكثير منها في ذلك العهد : كالمتنبِّي ، وأبي تمَّام ، والبحتريِّ ، والمعرِّيِّ ، ثمَّ أهل الرِّقَّة أصحاب الطَّريقة الغراميَّة : كابن الأحنف ، والبهاء زهير ، والشَّابِّ الظَّريف ، والتَّلعفَريِّ ، والحاجريِّ ، ثمَّ مشاهير المتأخِّرين ؛ كابن النَّحَّاس ، والأمير منجك ، والشَّرقاويِّ ، وقد حاول شوقي في أوَّل أمره أن يجمع بين هذا كلِّه ، فظهر في شعر تقليده ، وعمله في محاولة الابتكار ، والإبداع ، وإحكام التَّوليد مع السُّهولة والرِّقَّة ، وتكلُّف الغزل بالطَّبع المتدفِّق لا بالحبِّ الصَّحيح .

وأنا حين أكتب عن شاعرٍ لا يكون أكبر همِّي إلا البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه ، وكيف ألمَّ ، وكيف لحظ ، وكيف كان المعنى مَنْبهةً له ، وهل أبدع ، أم قلَّد ، وهل هو شَعر بالمعنى شعوراً ، فخالط نفسه ، وجاء منها ، أم نقله نقلاً فجاء من الكتب ، وهل يتَّسع في الفكرة الفلسفيَّة لمعانيه ، ويدقِّق النَّظرة في أسرار الأشياء ، ويحسن أن يستشِفَّ هذه الغيوم الَّتي يسبح فيها المجهول الشِّعريُّ ، ويتَّصل بها ، ويستصحب النَّاس من وحيها ، أو فكره استرسالٌ وترجيمٌ في

الخيال ، وأخذٌ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟ وبالجملة : هل هو ذاتيةٌ تمرُّ فيها مخلوقات معانيه لتخلق ، فتكون لها مع الحياة في نفسها حياةٌ من نفسه ، أم هو تبَعيَّة كالسِّمسار بين طرفين : يكون بينهما ، وليس منهما ، ولا من أحدهما ؟ في هذه الطَّريقة من البحث تاريخ موهبة الشَّاعر ، ولا يؤدِّيك إلى هذا التَّاريخ إلا ذلك المذهب إليه إن أطقتَه ، أمَّا تاريخ الشَّاعر نفسه فما أسهله ! إذ هو صورة أيَّامه ، وصلته بعصره ، وليس في تأريخٍ ما كان إلا نقله كما كان .

إذا عرضنا شوقي بتلك الطَّريقة ؛ رأيناه نابغةً من أوَّل أمره ، ففيه تلك الموهبة الَّتي أسمِّيها حاسَّة الجوِّ ؛ إذ يتلمَّح بها النَّوابغ معاني ما وراء المنظور ، ويستنزلون بها من كلِّ معنىً معنىً غيره .

انظر أبياته الَّتي نظمها في أوَّل شبابه ، وسنُّه يومئذٍ ٢٣ سنةً على ما أظنُّ ، وهي من شعره السَّائر :

خَدعوها بقولهم حسناءُ والغواني يغرُّهنَّ الثَّناءُ
ما تراها تناسب اسميَ لمَّا كثُرتْ في غرامها الأسماءُ
إن رأتني تميل عنِّي كأن لم تكُ بيني وبينها أشياءُ
نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

دع غلطته في قوله : (تميل عنِّي)[1] فإنَّ صوابها تَمِل ؛ إذ هي جواب إن الشَّرطيَّة ؛ ولكن كيف استخرج معانيه ؛ وأنا أكتب دائماً ، وما أزال معجباً بالبيتين الثاني ، والرَّابع ، لا إكباراً لمعناهما ، فهما لا شيء عندي ، ولكن إعجاباً بموهبة شوقي في التَّوليد ، فإنَّه أخذ البيت الثَّاني من قول أبي تمَّام :

أتيتُ فؤادها أشكو إليه فلم أخلص إليه من الزِّحام

فمرَّ المعنى في ذهن شوقي كما يمرُّ الهواء في روضةٍ ، وجاء نسيماً يترقرق بعد ما كان كالرِّيح السَّافية بترابها ؛ لأنَّ الزِّحام في بيت أبي تمَّام حقيقٌ بسوق قائمةٍ للبيع ، والشِّراء ، لا بقلب امرأةٍ يحبُّها ، بل هو يجعل قلب المرأة شيئاً غريباً كأنَّه ليس عضواً في جسمها ، بل غرفةً في بيتها . . . وقد سبق شاعرنا أبا تمَّام بمراحل في إبداعه ، وذوقه ، ورقَّته .

---

(١) انظر المساجلات بين الرَّافعي والعقاد في هذه القولة بالمقتطف . (س) .

والبيت الرَّابع من قول الشَّاعر الظَّريف :

قِفْ، واستمعْ سيرةَ الصَّبِّ[1] الذي قتلوا فمات في حبِّهم لم يبلغ الغرضا
رَأى فحبَّ فسامَ الوصلَ فامتنعوا فرامَ صبراً فأعيا نيله فقضى

وهذه « فاءَات » تجرُّ إلى القبر ، ونعوذ بالله منها . . . وممَّا كنت أعيبه على شوقي ضعفه في فنون الأدب ، فإنَّ المويلحي الكاتب الشَّهير انتقد في جريدة مصباح الشَّرق أبيات (خدعوها) عند ظهور الشَّوقيَّات في سنة ١٨٩٩ فارتاع شوقي ، وتحمَّل عليه ؛ ليمسك عن النَّقد ، مع أنَّ كلام المويلحي لا يسقط ذبابة من ارتفاع متر . . . ومن مصيبة الأدب عندنا ، بل من أكبر أسرار ضعفه : أنَّ شعراءَنا لا طاقة لهم بالنَّقد ، وأنَّهم يفرُّون منه فراراً ، ويعملون على تفاديه ، وأنَّهم لا يُحسنون غير الشِّعر ؛ فلا البارودِيّ ، ولا صبري ، ولا حافظ ، ولا شوقي كان يُحسن واحدٌ منهم أن يدافع عن نفسه ، أو يكتب فصلاً في النَّقد الأدبيِّ ، أو يحقِّق مسألةً في تاريخ الأدب .

ومن معاني شوقي السَّائرة :

لك نصحي وما عليك جدالي آفة النُّصح أن يكونَ جدالا

وكرَّره في قصيدةٍ أخرى ، فقال :

آفة النُّصح أن يكون جدالاً وأذى النُّصح أن يكون جهارا

والبيتان من شعر صباه أيضاً ، وهما من قول ابن الرُّوميِّ :

وفي النُّصح خيرٌ من نصيحٍ مُوَادعٍ ولا خير فيه من نصيحٍ مواثب[2]

فصحَّح شوقي المعنى، وأبدل المواثبة بالجدال، وذلك هو الَّذي عجز عنه ابن الرُّوميّ. ومن براعته في قصيدته (صدى الحرب) يصف هزيمة اليونان :

يكادون من ذُعْرٍ تفرُّ ديارُهم وتنجو الرَّواسي لو حواهنَّ مَشْعَبُ
يكاد الثَّرى من تحتهم يلج الثَّرى ويقضِمُ[3] بعضُ الأرض بعضاً ويقضبُ[4]

---

(١) « الصب » : العاشق ذو الحبِّ الشَّديد ، والاشتياق .

(٢) « مواثب » : واثبه مواثبة ، ووثاباً : وثب كلٌّ منهما على صاحبه .

(٣) « يقضم » : القضم : كسر الشيء بأطراف الأسنان ، وأكل الشيء اليابس .

(٤) « يقضب » : القَضْب : كلُّ نبتٍ اقتطع فأكل طريّاً كالبقول .

وهذا خيالٌ بديعٌ في الغاية ، جعل هزيمتهم كأنَّها ليست من هول التُّرك ، بل من هول القيامة ؛ وهو مع ذلك مولَّدٌ من قول أبي تمَّام في وصف كرم ممدوحه أبي دُلَفٍ :

تكـادُ مَغـانيـه تَهُشُّ عِـراصُهـا فتركبُ من شوقٍ إلى كلِّ راكبِ[١]

فقاس شاعرنا على ذلك ؛ وإذا كادت الدَّار تركب إلى الرَّاكب إليها من فرحها ، فهي تكاد تفرُّ مع المنهزم من ذعرها ، ولكنَّ شوقي بنى فأحكم ، وسما على أبي تمَّام بالزِّيادة الَّتي جاء بها في البيت الثَّاني .

ومن أحسن شعره في الغزل :

حَوَت الجمالَ فلو ذهبْتَ تزيدُها في الوَهْم حسناً ما استطعت مزيدا

وهو من قول القائل :

ذاتُ حُسْنٍ لو استزادت من الحسْـ ـنِ إليهـا لمـا أصـابـتْ مـزيـدا

غير أنَّ شوقي قال : لو ذهبت تزيدها في الوهم . . . والشَّاعر قال : لو استزادت هي ؛ فلو خلا بيت شوقي من كلمة (في الوهم) لما كان شيئاً ، ولكن هذه الكلمة حقَّقت فيه المعنى الَّذي تقوم عليه كلُّ فلسفة الجمال ؛ فإنَّ جمال الحبيب ليس شيئاً إلا المعاني الَّتي هي في وهم محبِّه ؛ فالزِّيادة تكون من الوَهْم ، وهو بطبيعته لا ينتهي ، فإذا لم تبقَ فيه زيادة في الحسن فما بعد ذلك حسنٌ : وقد بسطنا هذا المعنى في صورٍ كثيرةٍ في كتبنا : « رسائل الأحزان ، والسَّحاب الأحمر ، وأوراق الورد » فانظره فيها .

ومما يتمِّم ذلك البيتَ قولُ شوقي في قصيدة النَّفس :

يـا دُمْيـةً لا يُسْتـزادُ جمـالُهـا زيـديـه حُسْـنَ المُحْسِـن المتبـرِّع

وهذا المعنى يقع من نفسي موقعاً ، وله من إعجابي محلٌّ ؛ فهذه الزِّيادة الَّتي فيه كزيادة العمر لو أمكنتْ ، وهي في موضعها كما ينقطع الخطُّ ثمَّ يتَّصل ، وكما يستحيل الأمل ، ثمَّ يتَّفق ، ويسهل ، وقد علمتَ مأخذ الشَّطر

---

(١) « مغانيه » : المغاني : جمع مغنى ، وهو : المنزل الذي غني به أهله . « تهش » : هشَّ فلانٌ : ارتاح وتبسَّم ، وخفَّ للمعروف ، ونَشِط . « عراصها » : العراص : جمع عرصة ، وهي البقعة الواسعة بين الدُّور ليس فيها بناء .

الأوّل ، أمّا الثّاني فهو من قول ابن الرُّومي :

يـا حسَنَ الـوَجْـه لقـد شِنْتَـهُ[1] فـاضمـمْ إلـى حُسْنِـك إحسانـا

وفي القصيدة التي رثى بها ثروت باشا ـ وهي من أحسن شعره ـ تجدُ من أبياتها هذا البيت النّادر :

وقـد يمـوتُ كثيـرٌ لا تحسُّهمـو كأنَّهم من هوانِ الخطْبِ ما وُجدوا

وشوقي يعارِض بهذه القصيدة أبا خالد بن محمّد المهلّبي في داليّته الّتي رثى بها المتوكّل ، وكان المهلبي حاضراً قتله هو ، والبحتريُّ ، فرثاه كلٌّ منهما بقصيدةٍ ، قالوا : إنّها من أجود ما قيل في معناها ؛ وبيت شوقي مأخوذٌ من قول المهلبي :

إنّـا فقـدنـاك حتّـى لا اصطبـار لنـا ومـات قبلـك أقـوامٌ فمـا فُقِـدوا

أي : لم يحسَّ موتهم أحدٌ ، ولكن البيت غير مستقيم ؛ لأنَّ الّذي لا يموت فلا يفقد هو الخالد الّذي كأنّه لم يمتْ ؛ فاستخرج شوقي المعنى الصّحيح ، وجعل العدم الّذي هو آخر الوجود في النّاس ، أوّلَ الوجود ، ووسطه ، وآخره في هؤلاء الّذين هانوا على الحياة ، فوُجدوا ، وماتوا ، وما وُجدوا .

* * *

وإلى ما علمتَ من قوّة هذه الشّاعريّة ، ودقّتها فيما تتأتّى له ، ومجيئها بالمعاني النّادرة مستخرجةً استخراج الذّهب ؛ مصقولةً صقل الجوهر ، معدَّلةً بالفكر ، موزونةً بالمنطق ، تجد لها تهافُتاً كتهافت الضُّعفاء ، وغرةً كغرة الأحداث ؛ حتّى لتحسب : أنَّ طفولة شوقي كثيراً ما تنبعث في شعره لاعبةً هازلةٍ ، أو كأنَّ للرّجل شخصيّتين كما يقول الأطبّاء ، مهما تتعاوران شعره كمالاً ونقصاً ، وعلوّاً ونزولاً ، أو قل : هي العربيّة واليونانيّة في ناحيةٍ من نفسه ، والتُّركيّة والشّركسيّة في ناحيةٍ أخرى ؛ لتلك الابتكارُ ، والبلاغةُ ، والمنطق ، ولهذه التّهويل ، والمبالغة ، والخلط ؛ وشوقي هو بهما جميعاً ؛ تفتنُه القويّة منهما ، فيعجب بها إعجاب القوّة ، وتخدعه الضّعيفة فيعجب بها

(1) « شنته » : شوّهته .

إعجاب الرِّقَّة ؛ كما أعجب ببيته الَّذي قاله في الحنين إلى الوطن من قصيدته الأندلسيَّة الشَّهيرة :

وطَني لو شُغِلتُ بالخُلد عنه نازَعتني إليه في الخُلْدِ نفسي

وهذا البيت ممَّا يتمثَّل به الشُّبَّان ، وكتَّاب الصَّحافة ، ولم يفطن أحدٌ إلى فساده ، وسخافة معناه ؛ فإنَّ الخلد لا يكون خُلداً إلا بعد فناء الفاني من الإنسان ، وطبائعه الأرضيَّة ، وبعد أن لا تكون أرضٌ ، ولا وطنٌ ، ولا حنينٌ ، ولا عصبيَّةٌ ؛ فكأنَّ شوقي يقول : لو شغلت عن الوطن حين لا أرضٌ ، ولا وطنٌ ، ولا دولٌ ، ولا أممٌ ، ولا حنينٌ إلى شيءٍ من ذلك ؛ فإنِّي على ذلك أحنُّ إلى الوطن الَّذي لا وجود له في نفسي ، ولا في نفسه . . . وهذا كلُّه لغوٌ . . . والمعنى بعدُ من قول ابن الرُّوميِّ :

وحَبَّب أوطانَ الرِّجال إليهمو مآربُ قضَّاها الشَّباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانَهم ذكَّرَتْهُمو عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لِذَلكا

ومنازعة النَّفس هي الحنين ، ومعنى ابن الرُّومي وإن كان صحيحاً ؛ غير أنَّه لا يصلح لفلسفة الوطنيَّة في زماننا .

وإنَّ في شوقي عينين يذهبان بكثيرٍ من حسناته : أحدهما المبالغات التُّركيَّة الفارسيَّة ممَّا تنزعه إليه تركيَّته، ولا مبالغةَ في الدُّنيا تقاربها، كقول بعض شعرائهم: إنَّ النَّملة بزَفرتها[١] جفَّفت الأبحر السَّبعة . . . وهو إغراقٌ سخيفٌ لا يأتي بخيالٍ عجيبٍ كما يتوهَّمون؛ بل يأتي بهذيانٍ عجيبٍ ؛ وإذا كان الصِّدق يأنف من الكذب ، فإنَّ الكذب نفسه يأنف من هذا الإغراق . ومن هذه التُّركيَّة في شوقي إضافاتٌ وهميَّةٌ ، هي من تلك المبالغات كذيل الحمار من الحمار : قطعةٌ فيه ، ودليلٌ عليه ، وآخرٌ لأوَّله ، ولا محلَّ لها في ذوق البلاغة العربيَّة ؛ كقوله :

(عيسى الشُّعورِ) إذا مشى ردَّ الشُّعوبَ إلى الحياة

وقوله في سعد باشا في حادثة الاعتداء عليه :

ولو زُلت غُيِّب (عمرُو الأمورِ) وأخلى المنابرَ سَحباتُها

ويدخل في جنايات هذه التُّركيَّة على شِعره تكرارُه الأسماء المقدَّسة ،

---

(١) « زفرتها » : الزَّفرة : التنفُّس مع مَدِّ النفس ، والنَّفَسُ الحارُّ .

والأعلام التَّاريخيَّة : كيوشع ، وعيسى ، وموسى ، وخالد ، وبدر ، وسيناء ، وحاتم ، وكعب ، وغيرها ممَّا هو شائعٌ في نظمِه ، ولا تجده أكثر ما تجده إلا ثقيلاً مملولاً ؛ ولهذه الألفاظ عندنا فلسفة لا محلَّ لها الآن ، فهي أحياناً تكون السِّحر كلَّه ، والبلاغة كلَّها ، على شرط أن يكون القلب هو الَّذي وضعها في موضعها ، وأن لا يضعها إلا على هيئةٍ قلبيَّةٍ ، فيكون كأنَّه وضع نفسه في الشِّعر ليخفق خفقانه الحيَّ في بضعة ألفاظ، وهذا مالم يحسنه شوقي. والعيب الثَّاني: أنَّ ألفاظ شاعرنا لا يثبت أكثرها على النَّقد؛ لضعفه في الصِّناعة البيانيَّة، ثمَّ لضعف الموهبة الفلسفيَّة فيه ، واعتباره التَّهويل شعراً ، والمبالغة بلاغةً ؛ وإن فسدت بهما البلاغة ، والشِّعر ؛ انظر إلى قوله من قصيدته الشَّهيرة ٢٨ فبراير :

قالوا الحمايةُ زالت قلتُ لا عجبٌ   قد كان باطلُها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوعٌ فلا عدمتْ   كِنانةُ اللهِ حزماً يقطع الذَّنبا

قلنا : فإذا قُطع (رأس الحماية) وبقيت منها بقيَّةٌ ما : ذنبٌ ، أو يدٌ ، أو رجلٌ ، فإنَّ هذه البقيَّة في لغة السِّياسة ؛ الَّتي تنقد الألفاظ ، وحروفها ، ونقط حروفها . . لن تكون ذنباً ، ولا يداً ، ولا رِجلاً ، بل هي (رأس الحماية) بعينه . . . على أنَّ شوقي إنَّما عكس قول الشَّاعر :

لا تقطعنْ ذنب الأفعى وترسلها   إنْ كنتَ شهماً فأتْبع رأسَها الذَّنبا

وهذا كلامٌ على سياقه من العقل ، فما عَناء قطع ذنب الأفعى إذا بقي رأسها ؟! وإنَّما الأفعى كلُّها هي هذا الرَّأس .

ولقد ظهر لي من درس شوقي في ديوانه أمرٌ عجبتُ له ؛ فإنِّي رأيتُه يأخذ من أبي تمَّامٍ ، والبحتريِّ ، والمعرِّي ، وابن الرُّوميِّ ، وغيرهم ؛ فربَّما ساواهم ، وربَّما زاد عليهم ، حتَّى إذا جاء إلى المتنبِّي وقع في البحر ، وأدركه الغرق ؛ لأنَّه نشأ على رهبةٍ منه ، كما تشير إليه عبارته في مقدمة ديوانه الأوَّل ، وقد وصف خيل التُّرك في قصيدة « أنقرة » بقوله :

والصَّبر فيها وفي فرسانها خُلُقٌ   توارثوه أباً في الرَّوع بعد أبِ
كما وُلدتُمْ على أعرافها وُلِدَتْ   في ساحة الحرب لا في باحةِ الرُّحْبِ[1]

---

(١) « الرحب » : السَّعة .

وشعره هذا كأنَّه يرتعد أمام قول المتنبِّي :

أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الجيادِ كأنَّما أيدي بني عمرانَ في جبهاتها
الثَّابتين فروسةً كجلودها في ظهرها ، والطَّعنُ في لبَّاتها
فكأنَّما نُتِجَتْ قياماً تحتهمُ وكأنَّهم وُلدوا على صَهواتها

فانظر أين صناعةٌ من صناعةٍ ، وأين شعرٌ من شعرٍ ؟ !

وقال في (صدى الحرب) يصف مدافع الدَّردنيل :

قذائفُ تخشى مهجةَ الشَّمس كلَّما علَتْ مصعِداتٍ أنَّها لا تصوِّبُ
إذا هبَّ حاميها على السُّفن انثنت وغانِمها النَّاجي فكيف المخيَّبُ

وهذا الاستفهام (فكيف المخيَّب) استفهامٌ مضحكٌ ، لأنَّه كان النَّاجي غانماً فالمخيَّب خاسرٌ بلا سؤالٍ ، ولا فلسفةٍ ؛ والكلمة الشِّعريَّة في هذا كلِّه هي قوله (وغانمها النَّاجي) وهي كالهاربة تتوارى خوفاً من بيت أبي الطَّيب :

أغَرُّ أعداؤه إذا سلموا بالهرب استكبروا الَّذي فعلوا

فهذا هو الشِّعر لا ذاك ؛ على أنِّي أشهد أنَّ في قصيدة (صدى الحرب) أبياتاً هي أسمى الشِّعر ، وكأنَّ شوقي ـ رحمه الله ـ كان ينظم هذه القصيدة من إيمانه ، ومن دمه ، ومن كلِّ مطامع دنياه ، وآخرته ، يبتغي بها الشُّهرة الخالدة في النَّاس ، والمنزلة السَّامية عند الخديوي ، ونباهة الشَّأن عند الخليفة ، والثَّواب عند الله تعالى ؛ ولو هو في أثناء عملها أسقط نصفها ، أو أكثر ؛ لجاءت فريدةً في الشِّعر العربيِّ ، غير أنَّ الحرص كان يغترُّه ، وكان طولَ عمره مفتوناً بشعره ، فجاء في هذا الشِّعر بالطَّمِّ ، والرِّمِّ[1] ، كما يقولون ؛ وله كثيرٌ من الكلام الرَّذل السَّاقط بضعفه ، وتهافته ؛ ولولا تلك التُّركيَّةُ الفارسيَّةُ ، وضعفه البيانيُّ ، ولما رضي أن يكون ذلك في شعره ؛ وليت شِعره ! كيف غاب عن مثله : أنَّ التَّهويل ، والإغراق ، والإحالة ممَّا يُهَجِّن الشِّعر ، ويذهب بأثره في النَّفس ، ويحيله إلى صناعةٍ هي شرٌّ من الصِّناعة البديعية ؛ لأنَّ هذه تكون في الألفاظ ، والألفاظ تحتمل العبث البديعي ، ويخرج بها الأمر إلى أن تكون ضرباً من الرِّياضة ، كمعاناة بعض المسائل في الجبر ، والهندسة تركيباً

---

(١) « الطم » : البحر . « الرِّم » : الثَّرى .

وحلاً ، ولكنَّ المعاني لا تحمل ذلك ؛ إذ هي تفكير لا يلتوي إلا فسد ، والمعاني الَّتي يأتي بها الشَّاعر يجب أن تكون فيها مزيَّةٌ بخاصَّتها من الجمال ، والبيان ، وأن تكون أخيلتُها هي الحقائق ؛ الَّتي أوَّل مواضعها فوق حقائق البشر .

وهناك ضربٌ آخر من المبالغة يجيء من سقوط الخيال ؛ لأنَّ في الأسفل مبالغةً كما في الأعلى ، وإن كانت مبالغة الأسفل زيادةً في السُّخريَّة منه ، والهزء به ، وهذه المبالغة تأتي من جمع أشتاتٍ مختلفةٍ وإدماجها كلِّها في معنىً واحدٍ ، كهذا الَّذي حاول أن يدمج الطَّبيعة كلَّها في حبيبته ، فزعم : أنَّ فيها من كلِّ شيءٍ ، ونسي : أنَّ كلَّ قبيحٍ ، وكل بغيضٍ هو من كلِّ شيءٍ[١] .

إنَّ الخيال الشِّعريَّ يزيغ بالحقيقة في منطق الشَّاعر ، لا ليقلبها عن وضعها ، ويجيء بها ممسوخةً مشوَّهةً ، ولكن ليعتدل بها في أفهام النَّاس ، ويجعلها تامَّةً في تأثيرها ، وتلك من معجزاته ؛ إذ كانت فيه قوَّةٌ فوق القوَّة ، عملها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرَّةً ، وبغموضه أخرى .

ولعلماء الأدب العربيِّ كلمةٌ ما أراهم فهموها على حقِّها ، ولا نفذوا إلى سرِّها ، قالوا : أعذب الشِّعر أكذبُه ! يعنون : أنَّ قوام الشِّعر المبالغة ، والخيال ، ولا ينفذون إلى ما وراء ذلك ، وما وراءه إلا الحقيقة رائعةً بصدقها ، وجلالها . وفلسفة ذلك : أنَّ الطَّبيعة كلَّها كذبٌ على الحواسِّ الإنسانيَّة ، وأنَّ أبصارنا ، وأسماعنا ، وحواسَّنا هي عملٌ شعريٌّ في الحقيقة ؛ إذ تنقل الشَّيء على غير ما هو في نفسه ؛ ليكون شيئاً في نفوسنا ، فيؤثر فيها أثره جمالاً ، وقبحاً ، وما بينهما . وما هي خمرة الشِّعر مثلاً ؟ هي رضاب الحبيبة ، ولكنَّ العاشق لو رأى هذا الرِّضاب تحت المجهر ؛ لرأى . . . لرأى مستنقعاً صغيراً . . . ولو كان هذا المجهر أضعاف الأضعاف بما يجهر به ؛ لرأيت ذلك الرِّضاب يعجُّ عجيجاً بالهوام والحشرات ؛ الَّتي لا تخفى بنفسها ، ولكن أخفاها التَّدبير الإلهيُّ ؛ بأن جعل رتبتها في الوجود وراء النَّظر

---

(١) يعني : قول العقاد في « وحي الأربعين » :

فيك منِّي ومن النَّاس ومن كلِّ وجودٍ وموعودٍ توءم

الإنسانيِّ ، رحمةً من الله بالنَّاس ، فأعذبُ الشِّعر ما عمل في تجميل الطَّبيعة ، كما تعمل الحواسُّ الحيَّة بسرِّ الحياة ، ولهذا المعنى كان الشُّعراء النَّوابغ في كلِّ مجتمعٍ هم كالحواسِّ لهذا المجتمع .

ومن سخيف الإغراق في شعر شوقي قوله في رثاء مصطفى باشا كامل ، وهي أبياتٌ يظنُّ هو : أنَّه أوقع كلامه موقعاً بديعاً من الإغراب :

فلـو أنَّ أوطـانـاً تُصـوَّر هيكـلاً دفنـوك بيـن جـوانـح الأوطـان
أو كـان يُحْمَلُ فـي الجوارح ميِّـتٌ حملـوك فـي الأسمـاع والأجفـان
أو كـان للـذِّكـر الحكيـم بقيَّـةٌ ـلم تـأتِ بعدُ ـ رُثيتَ فـي القرآنِ

فهذه فروضٌ فوق المستحيل بأربع درجاتٍ . . وتصوَّر أنت ميِّتاً يحمل في الجوارح ، فيترمَّم فيها ، ويبلى . . وما زال الشَّاعر في أبياته يخرج من طامَّةٍ إلى طامَّةٍ ، حتَّى قال : رُثيت في القرآن ، ولو سئلتُ أنا إعراب (لو) في هذه الأبيات ؛ لقلت : إنَّها حرف نقصٍ ، وتلفيقٍ ، وعجزٍ . . . وكيف يسوغ في الفرض أن تكون للقرآن بقيَّةٌ لم تنزل ، والله تعالى يقول فيه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[المائدة : ٥] والأمر أمر دينٍ قد تمَّ ، وكتابٌ مقدَّسٌ خُتِم ، ونبوَّةٌ انقضت ، والشَّاعر ماضٍ في غفلته لم يتنبَّه لشيءٍ ، ولم يدرِ : أنَّه يفرض فرضاً يهدم الإسلام كلَّه؛ بل حسب : أنَّه جاء بخيالٍ ، وبلاغةٍ فارسيَّةٍ ، وشوقي في الحقيقة كاملٌ كناقصٍ ، وإنَّ من معجزات هذا الشَّاعر أن يكون ناقصاً هذا النَّقص كلَّه ، ويكمُل .

وفي الشَّوقيَّات صفحاتٌ تكاد تغرِّد تغريداً ، وفيها صفحاتٌ أخرى تَنِقُّ نقيق الضَّفادع ؛ وفي هذا الدِّيوان عيوبٌ لا نريد أن نقتصَّها ؛ فإنَّ ذلك يحتاج إلى كتابٍ برأسه إذا ذهبنا نأتي بها ، ونشرح العلَّة فيها ، ونخرج الشَّواهد عليها ، ولكن من عيوبه في التَّكرار : أنَّ له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في السَّاقية ، وهو هذا البيت :

وإنَّمـا الأمـمُ الأخـلاقُ مـا بقيـتْ فـإنْ هُمـو ذهبـتْ أخـلاقُهـم ذهبـوا

بل هذا البيت :

وإنَّمـا الأمـمُ الأخـلاقُ مـا بقيـتْ فإنْ تولَّت مضَوا علىٰ آثارها قدُما

بل هو هذا البيت :

كذا النَّاس بالأخلاقِ يبقى صلاحُهُم ويذهبُ عنهم أمرُهم حينَ تذهبُ

بل هو هذا البيت :

ولا المصائب إذ يُرمى الرِّجال بها بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِ

وقد تكرَّر (فيما قرأتُه من ديوانه) ثلاث عشرة مرَّةً ، فعاد المعنى كطيلسان ابن حرب الذي جعل الشَّاعر يرقعهُ ، ثمَّ يرقعه حتَّى ذهب الطَّيلسان ، وبقيت الرُّقع . والبيت الأوَّل من العَيْن النَّادر ، ولكن أفسده في الباقي سوء ملكة الحرص في شوقي ، أو ضعفُ الحِسِّ البيانيِّ ، أو ابتذاله الشِّعرَ في غير موضعه أو وهن فكرته الفلسفيَّة من جوانب كثيرةٍ ، وهذه الأربعة هي الأبواب التي يقتحم منها النَّقد على شعر صاحبنا ، ولو هو كان قد حصَّنها بأضدادها ؛ لكان شاعر العربيَّة من الجاهليَّة إلى اليوم ، ولكان عسى أن ينقل الشِّعر إلى طورٍ جديدٍ في التَّاريخ ؛ ولكنَّ الفوضى وقعت في شوقي من أوَّل أمره ؛ فأرسل إلى أوربة لدرس الحقوق ، وكان الوجه أن يرسل لدرس الآداب ، والفلسفة ، وغامر في سياسة الأرض ، وكان الحقُّ أن يشتغل بسياسة السَّماء ، وتهالك في مادَّة الدُّنيا ، وكان الصَّواب أن يتهالك في معانيها .

إنَّ الفوضى ذاهبةٌ بنا مذاهبها في الأدب ، والشِّعر ، فكلُّ شاعرٍ عندنا كمؤلفٍ يضع روايةً ، ثمَّ يمثِّلها وحده ، وعليه أن يمثِّلها وحدَه ، فهو يخرج على النَّظارة في ثياب الملك ، فيلقي كلاماً ملكياً ، ثُمَّ ينفتل ، فيجيء في ثوب القائد فيلقي كلاماً حربيّاً ، ثمَّ ينقلب ، فيعود في هيئة التَّاجر ، فيلقي كلاماً سوقيّاً ، ثمَّ يروغ ، فيرجع في مباذل الخادم ثمَّ . . . ثمَّ . . . ثمَّ يتوارى فيظهر في جلدة بربريٍّ . . . وهذه الفوضى الَّتي أهملتها الحكومة ، وأهملها الأمراء ، والكبراء هي حقيقةٌ مؤلمةٌ ، ولكن هي حقيقة !

* * *

وشوقي على كلِّ هذا هو شوقي : أوَّل من احتفى بتاريخ مصر من الشُّعراء ، وأوَّل من توسَّع في نظم الرِّواية الشِّعريَّة ، فوضع منها ستَّ رواياتٍ . وهو صاحب الآياتِ البديعة في الوصف . وهذهِ النَّاحية هي أقوى نواحيه ، ولقد ألهمتني قراءة البارع من شعره في أغراضه وفنونه المختلفة : أنَّ الله تعالى

ينعم على الآداب الجميلة بأفرادٍ ممتازين في جمال أرواحهم ، وقوَّتها ، تجد الآدابُ لذَّاتِها فيهم وسموَّها بهم ، كأنَّ الأمر قياسٌ على ما يقع من عشق النَّاس لبعض المعاني ، فيكون في المعاني ما يعشق بعضُ النَّاس ، ومتى بلغ المعنى لإنسانٍ مبلغ الاختصاص ، والوَجْد ؛ ظهر الفنُّ أبدع ما يُرى ، كأنَّ المعنى الأدبيَّ يتجمَّلُ ويتحبَّب ؛ ليستميل هذا الإنسان الحاكم عليه حكم الحبِّ .

فيا مصر ! لقد مات شاعِرُك الَّذي كان يحاول أن يخرجَ بالجيل الحاضر إلى الزَّمن الَّذي لم يأتِ بعد ، فإذا جاء هذا الزَّمن الزَّاخر بفنونه ، وآدابه العالية ، وذكرتِ مجد شِعرِك الماضي ، فليقل أساتذتك يومئذٍ : كان هذا الماضي شاعراً اسمه : شوقي !

* * *